على اعتراضات المراطقة . طُبع في رومية سنة ١٦٨٠

٣٠٣ ﴿جوليان﴾ الاب ميشال اليسوعي (P. Michel Julien) المتوفّى في غرّة كانون الثاني سنة ١٩١١ . عُرّب لهُ وطُبع سنة ١٨٨٤ كتابهُ المدعون «سياحة حديثة في بلاد صعيد السُّفلى» . ونشر في جريدة البشير ومجلة المشرق عدّة مقالات اثريّة وعلميّة واخلاقيّة . وتآليفهُ في اللغة الفرنسويّة متعدّدة مدار معظمها عن الشرق مثل كتابهِ عن وصف بعلبك وكتابهِ عن تاريخ رسالة الآباء اليسوعيين الحديثة في سوريّة وغير ذلك لاسيّما كتبهُ الرياضيّة الشهيرة وخلّف آثارًا تاريخيّة وعلميّة مخطوطة

٣٠٤ ﴿جوهر﴾ الياس من كتبة القرن العاشر . لهُ في مكتبة الڤاتيكانيّة (ع ١٦٥٧) كتاب «وافقة الايمان بين اليعاقبة والنساطرة والملكيين» . وفي مكتبتنا الشرقيّة في بعض مجاميعها تسبحة لله تعالى قالها «ايليا الجوهري الكلداني» يذكر فيها كمالاتهِ عزّ وجلّ ويبرز عن عواطف مختلفة من التواضع والاتكال على الله وطلب معونتهِ الخ

٣٠٥ ﴿جيرودو﴾ الاب برنارنردا اليسوعيّ (P. Bonav. Giraudeau) المتوفّى في ١٤ ايلول سنة ١٧٧٤ نشرت مطبعتنا الكاثوليكيّة كتابهُ المدعون بالامثال الروحيّة معرّباً بقلم المرحوم جرجس زوين سنة ١٨٦٧

٣٠٦ ﴿جيزو ماريا﴾ الاب الكرمليّ من مرسلي الكرمليين في القرن السابع عشر . عرّب كتابهُ «منحز الوعد السيّد ابرهام البطريرك الارمنيّ» (لها بقية)

الانتقاد والدروس التاريخيّة في سوريّة

نظر للاب هنري لامنس اليسوعيّ

تجوّل حديثاً رئيس المجمع العلميّ العربي في دمشق جناب السيّد محمّد كرد علي في نواحي اوربّة فساقهُ القدر الى اسبانية حيث سُرّ باكتشاف الاندلس العربيّة .

فلما عاد الى الفيحاء أسرع فنشر في مجلة المجمع العلمي العربي نتيجة ابحاثه في عدة مقالات تحت عنوان «غابر الاندلس وحاضرها» توالت في المجلة من أيار الى ايلول. فمن سرح فيها البصر لا يسعه الا أن يأسف على كونه لم يتمتع بهناء ورغد الاندلس في أيام العرب بل يشعر ببُعد القرن العشرين عن كل ذاك العهد السعيد فيتمنى خلسة

كيف لا ويوقفنا كولمبس الاندلس على ما لم يدُر بخلدنا فانه يكاد لا يجد في عصرنا اكتشافاً علمياً او اقتصادياً الا ينسب اختراعه الى عرب الاندلس قبل ان يخطر على بال اساطين العلم في اوربة. مثالهُ فنّ الطيران. فانّ اليونان نسبوهُ في خوالي العصور الى «ايكار» الذي حلق في الجوّ لكنهُ لما حاذى بتقربهِ من الشمس ذاب الشمع اللاحم بين جسمهِ واجنحته فسقط ميتاً على الحضيض. امّا السيد كرد علي فيحرم ايكار من فضل سبقهِ فينسب اختراع فنّ الطيران الى ابي قاسم بن فرناس فيقول «انهُ اوّل من حاول الطيران من بني الانسان» ولعلهُ وجد في الاندلس آثار طيّارته فتهلّل فرحاً لهذا الاكتشاف ولو راجع كتابنا «مدارج الترجمة الفرنسوية العربية» (ج ١ ص٨٩) لرأى اننا سبقناهُ الى ذكر هذا الطيّار قبل ثلثين سنة اذ نقلنا خبرهُ عن نفح الطيب المقّري فوسمنا القطعة بعنوان «طيّار عربي»

ومما رواهُ هناك من الاختراع لاهل قرطبة «انهم اوّل من عُني بتبليط المدن وكذلك إنارة الطرق في الليل عُرفت لاوّل مرّة في قرطبة» ولو حدّق جناب السيد نظرهُ بدمشق وطنهِ لرأى الى اليوم آثار التبليط الروماني. ومثلها انطاكية كما روى يوسيفوس المؤرخ. امّا انارة الطرق فيها فانهُ كان شائعاً في عهد الرومان. ولكن ابن الرومان من عرب الاسلام في عين كاتبنا العصري!

وكم هناك ايضاً من المزاعم التي لم يأنف السيد كرد علي من نسبتها الى اهل الاندلس كصناعة الزجاجة وعمل البارود والطباعة على الحروف (راجع المشرق السابق ص٩٦٧). فيا لله كيف جهل انطلاء هذا الفضل العميم بل أعموا ابصارهم عن هذه الشموس الساطعة! فليحيَ كولمبس الاندلس ومكتشف عجائبهِ المجهولة

***

ولعلّ السيد كرد علي احقّ واصدق في انتقادهِ المطوّل الذي خصّهُ بكتابنا «الحديث عن تاريخ سورية» (الطلب عدد مجلة المجمع العلمي العربي ايلول ١٩٢٢ ص

٢٧١—٢٨٢) فشرفنا بلحظاته على ما كتبناه . ولأنه يتهز الفرصة في مطاوي كتابته ليشعر القراء بأفكاره في تسطير التاريخ فلا بأس ان نعرض نحن ايضاً بعض الخواطر في الانتقاد التاريخي (١)

واوّل ما يلزم المنتقدَ علمُهُ انّ التاريخ لا يبلغ مداهُ بزمن محدود فهو احد العلوم التي لا تكمل نهائيًا فيدخل في بنائه كلّ يوم عناصر جديدة تزيده كمالًا فلا عجب اذن ان يُصيب رقياً متواصلاً . وانما ينبغي على المنتقد اذا وقف على اثر تاريخي جديد ان يسبره بميزان العقل ويحكم فيه حكماً مجرّداً عن رأيه الخاص بوزانة شأن العقلاء

وقد وجدنا السيد كرد علي يغلب غير مرّة مشاعره على الحقيقة الوضيئة . فلو لم يفتخر باصله من دمشق ولم يتولّ ادارة المجمع العلميّ الدمشقي لعذرناهُ في تفوره من معاوية ومن بني امية فكاد يرومني (ص ٢٧٣) على ما صرفتهُ من السنين الطوال لاثبات مفاخر تلك الدولة التي مدينةٌ لها دمشق باعظم آثارها كما انّ سوريّة كلها اضحت بفضلها مدّة مئة سنة مركزاً للخلافة . فهو معاوية الذي رفع شأن الفيحاء فجعلها عاصمةً لدولته بعد ان كانت كاحدى شقيقاتها البورّية وقد حفظت رتبتها هذه الرفيعة حتى في عهد الدولة العبّاسيّة المعادية لاهل الشام والتي يفضّلها السيد كرد علي على دولته الوطنيّة ولقد يسوءني اذ اراني مدفوعاً بحكم الضرورة الى ان اذكر جنابهُ بهذه الاحداث التاريخيّة

وقد لحظنا في مطالعة انتقاد السيد كرد عليّ انهُ كثيراً ما يستند في مزاعمه الى سيديليو كأنهُ اتخذهُ لهُ دليلًا ومرشداً ولو درى لعرف انّ سيديليو هو اليوم احد الكتبة الموتى الذي لا يتنازل احد المستشرقين لذكره او لتفنيده . ومثلهُ في سعة معارفه الشرقيّة الدكتور لوبون الذي زعمت مجلّة المنار المصريّة (١٩ : ٣٤١) «انهُ في مقدّمة المستشرقين الموثوق بهم» وهي على خلاف ذلك (١٩ : ١٦٢) بخست قدر الدوق كايتاني احد ائمّة العلوم الشرقيّة في عهدنا . فكفى بالاستناد الى مثل هؤلاء دليلًا على

---

١) وجذه النسبة نشكر هنا الكتبة الذين تلطّفوا وانتقدوا تاريخنا بكل تراهة نخصّ منهم بالذكر الكاتبين الاديبين والاستاذين في الجامعة الاميركيّة الدكتور فيليب حتي والسيد انطوني رستم فاننا وجدنا انتقادهما كمثال يُقتدى بهِ في وصف المطبوعات

قلّة بضاعة المنتقدين فانّ سيديليو جاهل متعنت ولوبون طبيب شهير وجّه نظره الى الشرقيّات فلم يُصب منها نصيباً وافياً . امّا ميشو فانّ ما كتبهُ سابقاً عن الحروب الصليبيّة كسدت اليوم تجارتهُ بعد نشر المؤلفات الضخمة التي قام بها العلماء الاثبات

امّا كتبة العرب الذين يبالغ السيد كرد علي في تعظيمهم فكل يعلم ان رواياتهم لا يمكن الركون اليها الا بعد مقارنتها بكتابات المؤرخين المعاصرين من اللاتينيين واليونان والارمن . فاو راجع مجموعة تآليفهم التي تولّى نشرها مجمع العلوم في باريس لأخذ حذرهُ من اقوال بثّ بها حكمهُ جزافاً

ولسنا نجهل انّ ذلك يستدعي معلومات خاصّة وابحاثاً طويلة الّا انّ الانتقاد لا يقوم الّا بمثل ذلك لمن شاء تزييف آراء غيره وتقويم عوجها . ولولا ذلك لضاعت فائدة المجامع العلميّة فيبقى اصحابها مقيّدين باوهامهم السابقة بدلاً من ان ينفخوا روحاً جديدة في تبعتهم بتوسيع نظرهم وطلب الحقيقة في مظانّها

نعم انّ السيد كرد علي في كلامهِ عن الاندلس يشير الى نيف وثلثين تأليفاً (بينهم صديقهُ سيديليو) وعدّة مؤلفين اسبانيين لكنني في شكّ عن اطّلاعهِ عليها او ادراكهِ لمضمونها وقد وجدتهُ في تفسيرهِ للنصوص الافرنسيّة مخطئاً

ومن جملة ما اخذهُ عليّ ذكري في تاريخي (١ : ٢٢٤) لمطامع صلاح الدين . فوجد اني تجاوزتُ حدود الانصاف بهذه الكلمة ومسّتُ شرف ذاك الرجل العظيم الذي بلغ على زعمهِ كمالاً هيهات ان يتزحزح بهِ شائبةٌ ما . فناشدتك الله أيها السيد المنصف بربّي وربّ يجوز ان تُنعت ما صنعهُ صلاح الدين لمّا جرّد ابناء نور الدين الايتام من وراثة والدهم وليّه وسيّده فاستبدّ بها ؟ وما قولك بخادم تأتمنهُ على مالك فيخونك فيهِ ويخصُّهُ بنفسهِ أفلا تدعو عملهُ هذا مطمعاً ؟

كذلك لم تَرُقْ في عين المنتقد كلمتي عن الحروب الصليبيّة اذ دعوتها بوقائع البسالة (héroïques aventures) (١) . كما انهُ لم يَرْضَ بقولي (١ : ١٦٦) عن تأثير الفقه الروماني بالفقه الاسلامي فقال «انها دعوى ادّعى بها البعض ولم يأتوا عليها

(١) وقد نسب شيخ الاسلام احمد زيني دحلان في كتابهِ الفتوحات الاسلاميّة (٢ : ٣) الى الله عزّ وجلّ الحروب الصليبيّة وغيّبة اسبابها وذكر هناك الآيات التي دفعت النصارى الى مباشرتها فليراجع

بحجة » واحالنا الى ما كتبهُ المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني في المقتطف وهو الذي لم يشتهر بغير معارفه اللغويَّة ولم يُحسن معرفة لغـة اوربيَّة ونـي شهادة الاختصاصيين كنولدتسير وغويدي ونلّينو ولعلَّهُ لم يطّلع على تآليفهم المثبتة بهذا التأثير(١ . ولا نظنُّهُ يردُّ شهادتهم وهو الذي قد ضمَّهم الى مجمعه العلميّ واثنى على غولدتسير بعد وفاته . لكني لشكر جناب السيد كرد عليّ على ما كتبهُ عن ابن بطوطة (ص٢٧٤) في اثناء كلامه عن ابن تيميَّة . فان هذا السانح لا يستحقّ ما ينسبهُ اليه البعض من القَدْر (٢ وقد ادهشني صنيع لجنة بيروت الموكول اليهـا تعيين اسماء الشوارع اذ اطلقت اسم ابن بطوطة على بعض شوارعها . وعلى كلّ حال لا يُنكر ان علماء دمشق وفقهاءها هم الذين حكموا على ابن تيميَّة واضطرُّوهُ الى ان يقضي حياتهُ في الحبس . وعلى ما أرى انّ ابن تيميَّة كان مدفوعاً الى طلب الاصلاح بغيرة خالية من الغرض . لكنَّهُ كان مخطئاً اذ كان يحكم بالموت على كلّ من كان يخالفهُ في رأيه

وقد عرف لبنان تعصُّب ابن تيميَّة يوم أفتى بمحـاربة جبل كسروان فدخلتهُ عساكر الدولـة المصريَّة سنة ٧٠٥ هـ فقتلوا ونهبوا واسروا (راجع تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ٤٩—٥٠) . وقـد حذا حذو ابن تيميَّة تلميذهُ ابن قيم الجوزيَّة في تعصُّبه فنالتهُ مثلـهُ محنٌ كثيرة في دمشق . ومن عجيب امرهما انَّ الوهَّابيين اليوم والمسلمين الارتجاعيين يتنازعون نسبتهما اليهم . فندع للسيد كرد عليّ ان يقضي بينهم ويبيّن اي حزب كان الارتجـاعيّ أهو ابنُ تيميَّة وتلميذهُ او علماء دمشق الذين طرحوهما في السجن

***

وقد حان الوقت لتعريف خطَّة العرب التاريخيَّة وبيان مبلغهم من النقد الصحيح حتى اكبرهم شأناً كالطبري والبلاذري وابن سعد وصاحب كتاب الاغاني وغيرهم . فانَّ المستشرقين قد حكموا في ذلـك حكماً فصلاً منذ زمن مديد على خلاف

١) الطلب في المشرق السابق (ص ٨٩٨—٩٠٣) مقالة الاديب لويس دي برون ردًّا على عارف بك النكدي في هذا الصدد

٢) راجع محاضرتنا المعنونة La Vie Universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas-Empire, *Le Caire*, 1921

الشرقيين . فانَّ علماء اوربَّة الأثبات قد صرَّحوا — والامر اضوأ من الشمس — بانَّ كتبة التاريخ عند العرب كالطبريّ وغيره ليسوا بحصر الكلام مؤرخين وانَّما هم فقط اخباريُّون يروون كاصحاب الحديث البخاري ومسلم وغيرهما ما سمعوهُ وبلغهم من الاخبار على علَّاته واختلاف المرويَّات المتباينة بل المتضادَّة دون ان يحكموا في صحيحها او فاسدها

هذه مثلًا واقعة اليرموك فان راجعتَ ما كتبهُ فيها مؤرخو العرب توالت امام عينك صُحفهم واحاديث رواتهم على طريقة مملَّة مزعجة فلا ترى سوى قولهم « حدَّث فلان عن فلان » وكلّ حديث يخالف ما سبقهُ ورُبَّما نفاهُ من اصله . فيُصبح القارئ في آخر الامر متحيِّرًا مشوَّشًا لا يدري شيئًا من حقيقة الامر . ولا ننكر انَّ في ذلك نفعًا اذ به يتمكَّن الخلف من الوقوف على اختلاف آراء السَّلف وانَّما كان الواجب على المؤرخ ان يعمل هو في تلك المرويَّات نظر الانتقاد فيفرز بين الغثّ والسمين وبين الباطل واليقين . فانَّ هذه هي اوَّل صفات المؤرخ لاسيما اذا كان معاصرًا للوقائع . وغاية ما يقال عن اولئك الكتبة الاقدمين انَّهم اعدُّوا لنا موادَّ البناية وعلينا ينبغي ان نشيد البناء .

وان قيل هذا ما فعلهُ المؤرخون من بعدهم كابن الاثير وابي الفداء وابن خلدون . قُلنا انَّ هؤلاء الكتبة لم يذكروا الامور كما وقعت وانَّما حرَّروها كما تصوَّروها وشاعت في زمانهم بعد وقوعها بقرون عديدة واصبحت كرواية رسميَّة تشرَّبت بتقبُّلها من راوٍ الى آخر بحيث يصعب الحكم في صحَّتها

ومما يجب الاشارة اليه حتى في روايات الطبري وامثاله انَّهم كتبوا تاريخهم نحو ٣٠٠ سنة بعد حدوث الوقائع فرووا احاديث لاختلاط الناس بينهم العالم والأمي والصادق والمتحزِّب . ومن ثمَّ يجب على الكاتب العصري ان يُعارض اقاويل كتبة العرب بما رواهُ غيرهم من الاجانب كاليونان والسريان والفرنج . فمن اراد في زماننا ان يكتب تاريخ الحرب الكونيَّة فانَّهُ لا يكتفي بما روتهُ الدول المتحالفة بل يقتضي عليه مراجعة ما يرويهِ الخصوم . وهذا ما توخَّيناهُ في كتابنا تاريخ سوريَّة

ومن ثمَّ لا نرى السيِّد كرد علي مصيبًا اذ يعارض ما اثبتناهُ من الارقام (١ : ٥٦) عن واقعة اليرموك بارقام الطبريّ . وهي لعمري مسئلة تستدعي بحثًا

الايضاحات . فانَّ للارقام في التاريخ العربيّ سراباً ربَّما انخدع به النظار فأدّى بهم الى اضلّ الضلال

***

وليست اوهام الارقام حديثةً . فان يوسيفوس اليهودي في تاريخهِ زعم ان معاملة الجليل وحدها في فلسطين بلغت في عهد السيد المسيح عدّة ملايين من البشر . وعلى زعمهِ هذا قاس الصهيونيُّون المعدثون زعمهم بان قسماً كبيراً من اليهود يمكنهم ان يستوطنوا فلسطين . والى رأيهم هذا جنح السير هربرت صموئيل المفوّض السامي البريطاني هناك . وكذلك زعم بعض السوريين انَّ عشرين مليوناً من النفوس بل ثلثين ايضاً كانوا يسكنون في بلاد الشام على عهد الرومان

ولسنا لنتكر انَّ سوريَّة في ذلك الوقت كانت اخصب منها اليوم بكثير وانَّها لم تُصَبْ بما استولى بعد ذلك من الخراب على كثير من انحائها المخصبة فكان فيها المدن العامرة كالقيسريَّة واقامية (١ ولاسيما انطاكية التي كان بلغ عدد سكانها الى ٣٠٠،٠٠٠ . وهي اليوم لا تزيد عن ٢٥،٠٠٠ الى ٣٠،٠٠٠ . وعلى خلاف ذلك كم من مدينة بات اليوم ضعفي وثلاثة اضعاف نفوسها سابقاً كدمشق وبيروت . فهذه جبال العلويين ولبنان التي كادت تكون قديماً خلواً من السكان يبلغ اليوم عددهم نحو ٦٠٠،٠٠٠ ولا نظنّ انَّ العالم الالماني بلوك (Block) تجاوز حدود الحقّ بتوهمهِ انَّ سوريَّة في اوج رقيها على عهد الرومان لم يزد عدد اهلها على سبعة ملايين من النفوس . لا شكّ ان الوسائل الاقتصاديَّة التي أُتصل اليها لعصرنا تعين على توفير السكان واعالتهم ولكن لسنا على يقين بتسرّ هذا العدد الى ان يبلغ ضعفهُ . وسيرينا المستقبل الخبر الصحيح

امَّا النتيجة من كلّ ذلك انهُ من الواجب اللازب على المتقدمين ألّا ينخدعوا بالارقام . فان علم الاحصاءات من ادقّ الامور التي يستدعي التصرُّف بها حذقاً ضليعاً . بكلّ يعلم ان غليوم الثاني الامبراطور الالماني السابق في النخب الذي شربهُ

---

١) انَّا مرَّة النعمان التي زعم السيد كرد علي أنَّها كانت من أمهات المدن فانَّ مؤرخي العرب تقسم بدهرها حيث لا تخالف ما دعوناها به اي مدينة غير مهمة (une bicoque) وانَّا يطربون خصبها فقط

بدمشق بلغ عدد المسلمين في العالم ٣٠٠ مليون وكان السيد كرد علي في ذلك الوقت في عنفوان الشباب فعلقت تلك الكلمة في قلبه حتى كررها في العدد الاخير من مجلة المجمع العلمي (ص ٢٧٥) وابى ان يجري في هذا الاحصاء على آثار صاحب المنار الذي جعل عدد المسلمين ٣٦٠ مليوناً وبلغه غيره الى ٤٠٠ مليون . غير انّ ذوي الانتقاد من محبي الاسلام نفسهم قد اثبتوا انّ عدد المسلمين لا يتجاوز ستين مليون . فبيّنوا ان تبعة الشريعة المحمدية في الصين يتراوح بين سبعة الى ثمانية ملايين ليس ٣٠ الى ٤٠ مليوناً . وكانوا يحدون سابقاً في مراكش ١٢ مليوناً فثبت بالاحصاء الاخير انهم ثلاثة ملايين فقط وكذلك المسلمون في الدرفور فانّ العدد الشائع سابقاً هبط من ثلاثة ملايين الى ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ومثلها واداي (افريقية) كانوا يزعمون انّ المسلمين فيها ثلاثة ملايين ونصف وتحققوا اليوم انهم مليونٌ فقط . ومن اراد الوقوف على هذه الاحصاءات عليه بمجلة العالم الاسلامي الانكليزية (The Moslem World) في عددها نيسان ١٩١٤ ص ١٤٥ الخ والمجلة الاسلامية الالمانية (Die Welt des Islams, 1914, p. 277) ومنها احصاء الاختصاصي الالماني وسترمان. وكان المستشرق مرتين هرتمان احد المتعجبين بالاسلام بلغ الى النتيجة ذاتها بعد الابحاث المدققة . اما سبب هذا الاختلاف الكبير في الاحصاءات فثقة ناشريها بمعلومات حدسية وتخمينية لبعض السياح الذين كانوا يزعمون ان معظم الامم في افريقية الغربية والوسطى يدينون بالاسلام . فجاءت الابحاث الجديدة تبطل هذه المزاعم الفارغة (Revue du Monde Musulman, XLIX, 124 sq) بل تثبت هبوط عدد المسلمين في بعض الانحاء . اما البلاد التي هي واقعة تحت حكم الدول الاجنبية كالهند فانّ عددهم في تزايد لتوفر الاسباب الاقتصادية والصحية فيها

ومن مبالغات السيد كرد علي القاهرة في كتابه عن الاندلس (ص ٢٢٨) انها على عهد الحضارة العربية كانت تحتوي «اربعين مليون نسمة من ارباب الصنائع والعمل» (كذا) ويقابل بين عددهم هذا وعدد اهل اسبانية اليوم البالغين ٢١ مليوناً . ثم ألحق قوله «بالخمسة الالاف الف الف الف» (كذا) من الدنانير ٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ التي خلّفها عبد الرحمان الناصر في بيوت دوالهِ وهو مبلغ لم يحلم به اصحاب قصص الف ليلة وليلة وهذا كلهُ على زعمهِ من النقود الذهبية (حجر) ومن المعلوم انّ مجموع نقود

الدول كلها في زماننا لا تبلغ الى عُشر هذا القدر وخزائن جميع الملوك لا يمكنها ان تحويهُ . فما قول السيّد كرد عليّ بهذه الارقام السحريّة !!

وقد أنف جنابهُ من قولي عن جيش الروم في واقعة اليرموك (١ : ٥٦) أنهُ لم يزد كثيرًا عن جيش العرب فدعنا نذكر بعض الارقام الخرافيّة التي يرويها مؤرخو الاسلام لينظر جنابهُ ايمكننا ان نستند الى اقوالهم في احصاءاتهم . قال الواقدي من مشاهير المؤرخين واقدمهم وعنهُ روى البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٤١) انّ معاوية لمّا فتح قيسارية « وجد فيها من المرتزقة سبعمائة الف ومن السامرة ثلثين الفًا ومن اليهود مائتي الف وكان يحرسها في كلّ ليلة على سورها مائة الف » ولم يذكر عدد النصارى الذين كانوا جلّ سكان قيسارية في ذلك الزمان ومن ثمّ يجب القول ان اهل قيسارية كانوا اوفر عددًا من عاصمة الانكليز حاضرًا

فكل هذه ارقامٌ صبيانيّة لا يستطيع العاقل ان يركن اليها . ولذلك لم نسلم للسيّد كرد علي بقوله ان الصليبيين قتلوا مئة الف من اهل معرّة النعمان فانّ المعرّة وما يلحق بها لم يبلغ سكانها هذا العدد لاسيّما ان اليعقوبي في كتاب البلدان (ص ١١١) ذكرها في القرن الثالث للهجرة وقال عنها «معرّة النعمان مدينة قديمة خراب واهلها تنوخ » . أمّا اليرموك فلو راجع جناب السيّد كرد علي تاريخ الروم في ذلك العهد لرأى في اية حالة كانت دولتهم بعد حروب دامت ١٥ سنة وانهكت قواهم حتى انّ هرقل الملك لمّا اراد محاربة الفرس لم يمكنهُ ان يجند اكثر من عشرة آلاف رجل وبهم فاز بالغلبة . أفيمكننا ان نوافق كتبة العرب بعد هذا ونسلم لهم بان جيش الروم كان يبلغ في واقعة اليرموك مائتي الف جنديّ ؟ فتأمّل

اني اقف عند هذا الحدّ وأحيل جناب رئيس المجمع العلمي الى كتب ائمة المستشرقين كولموزن وكايتاني لعلّها يقتنعانهِ بما كتباهُ عن احصاءات العرب . وان أنسَ في الكلام عن ذلك فنعلتُ تحذيرًا للكتبة من هذه الروايات الغريّة التي ينخدع بها رجال من نخبة وطننا وارقاهم علمًا وذكاء كالسيّد كرد علي . هذا واصون نفسي في الختام عن تكرار كلمة قالها متهكمًا (ص ٢٨٠) : « انّ الغاية تبرّر الوسيلة (١) » وانما اقول : « لا عصمة الّا لله »

١) راجع مقالة المشرق (١٧ [١٩١٤] : ٤٢٢-٤٣٠) تفنيدًا لهذا المبدأ المنسوب زورًا الى اليسوعيين فظنّ السيّد كرد علي انهُ يمكننا بذكره !!